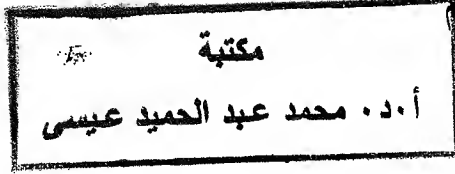


بسم الله الرحمن الرحيم



غر ناطة : الأيام الأخيرة .

بقلم د. / محمد عبد الحميد عيسى

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة

ورئيس قسم التاريخ بتربية عين شمس

يجمع المثقفون في كافة أنحاء العالم الإسلامي على أن الأمة الإسلامية تحتاز في الوقت الحاضر واحدة من أخطر الأزمات التي تلم بها ، كما أنها تمر بمرحلة من أخطر مراحل حياتها ، وهي مرحلة تنزع فيها إلى الفرقة والاختلاف . إن لم يكن إلى التصادم والقتال مما يعنى احتمالات القضاء عليها وإلغاء مستقبلها .

والتاريخ والدراسة التاريخية هما جرس الإنذار ، ومصباح تبديد الظلام لكي يمكن لهذه الأمة أن تتنبه من غفلتها ، وأن تتبين أين تضع أقدامها .

والأندلس ، وتاريخ المسلمين على أرضها ، وما جرى من أحداث ووقائع هناك . تشكل بالنسبة للمسلمين اليوم مرآة يمكن أن نرى فيها تجربة حية لما يمكن أن يكون عليه مستقبلنا .

إن الأندلس ، وتاريخ المسلمين في الأندلس ، دون كل بقاع العالم الإسلامي الأخرى ، درس التاريخ الذي لم يستوعب ، بل درس التاريخ الذي يمكن أن يتكرر ، والذي يهتف بنا بأن التاريخ يمكن أن يعيد نفسه ما لم يتعلم الإنسان ، ويستفيد من هذه التجربة .

إن ما يتعرض له العالم الإسلامي اليوم من هجمات شرسة يتعاون فيها الشرق والغرب على السواء ، إنما هو صورة متكررة لما تعرض له المسلمون في الأندلس ، وقد نتعرض لمثله ، ونلقى نفس المصير ما لم نستوعب درس التاريخ الإسلامي هناك ، نقرأ عن فترات القوة والمجد ونعرف عوامل

هذه القوة وهذا المجد . ونقرأ أيضا ، وباهتمام أكثر ، عن فترات الضعف والتخاذل لكى نعرف أسباب هذا الضعف وعوامل التفكك حتى نتفادها حاليا فى صراعنا من أجل البقاء ، وإلا فلن يكون مصير مسوى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأفضل من مصير مسجد قرطبة أو المسجد الجامع فى أشبيلية أو قصر الحمراء فى غرناطة

فإن تم لنا الاستيعاب المرجو ، وأحسبنا حقا أننا نرتبط بذلك الماضى ارتباطا وثيقا . استطعنا أن نتلافى ما فيه من أخطاء ، وأن نتجنب الهفوات والهتات والأخطاء الكثيرة التى لا يخلوها منها تاريخ أمة من الأمم ، واستخرجنا من ثناياه العظات والعبر . واستخلصنا الدرس والنتيجة ، وتمثل لنا الماضى قويا ظاهرا مائجا بالحياة ، فيبعث فى نفوسنا التى أوهنتها الخطوب المتلاحقة ، وأضعفتها النوائب المتواصلة ، وأومتها الجراح <sup>وأدمت</sup> الغائرة <sup>بصيغها</sup> بضيضان الأمل الحلو ، وشعورا بالثقة بالنفس . لهذا يكتب التلرخ ، ولهذا يعمل العاملون ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين كما قال الله فى كتابه الكريم .

#### أيها الاخوة الحضور :

ظل الوجود الإسلامى على أرض الأندلس أكثر من تسعة قرون تقلب خلالها بين فترات قوة وازدهار وبين فترات ضعف وانحسار ومن الخطأ أن نتصور أن الإسلام كان يضم كل بلاد الأندلس خلال هذه القرون الطويلة ، لأن الحقيقة التاريخية ، تبين لنا أن التآكل فى أطراف الأندلس قد بدأ بعد السنوات الأولى للفتح مباشرة ، لأن المسلمين الفاتحين أهملوا القضاء على بقايا المقاومة القوطية ، وتصوروا أن لجوء فلول هذه المقاومة إلى المناطق الجبلية فى أقصى شمال غرب أسبانيا كفى بالقضاء عليهم ثم تبينوا بعد فوات الأوان أن هذه الفلول الهاربة قد تجمعت وكونت أساس أول دويلة مسيحية على أرض الأندلس بعد الفتح ، وأنها كانت مستصغر الشرر الذى نجم عنه معظم النيران .

قامت حروب أهلية بين المسلمين فى الأندلس خلال سنوات أقامتها الأولى كانت السبب فى إعطاء الفرصة لهذه الفلول المختفية فى الجبال لكى تكون دولة تقوى وتشتد على حساب المسلمين . من مناطق جبال <sup>البرلينية</sup> الرنية ، وشمال شرق الأندلس ، والشمال الغربى ، وأن ترزح حدود بلادهم بعيدا عن أكثر من ثلث أرض شبه الجزيرة .

وتوحدت الأندلس تحت حكم الأسرة الأموية منذ عام ١٣٨ هـ وإلى حوالي ٤٢٠ هـ فبلغت من القوة والعظمة ما جعلها في المقدمة من بلاد العالم في ذلك الحين ، وقصدها السفراء والرسول يطلبون ود حاكمها ويسعون إلى صداقته ، كما غدت قرطبة وغيرها من مدن الأندلس منارا للعلوم والفنون وموطنا للآداب وجمعها لذوى الألباب . وكان القرن الرابع الهجرى العصر الذهبى للمسلمين فى الأندلس.

فى القرن الخامس الهجرى أصابت المسلمين هناك لعنة الخلاف مرة أخرى ، وتقسمت تلك الدولة القوية الواحدة إلى عشرات من الممالك الصغيرة الضعيفة يسعى كل منها للقضاء على الأخرى ، وكان ذلك فرصة ذهبية لممالك <sup>إسبانيا</sup> الحضارة المسيحية ، فتقدمت مملكة قشتالة لتفرض على المسلمين فى الأندلس سلطانها . وتقتطع أطراف بلادهم حتى أمكنهم الاستيلاء على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهى فى وسط بلاد المسلمين تماما دون أن يتقدم أحد لإنقاذها أو الدفاع عنها .

وبذلك ضاعت نصف بلاد الأندلس قبل نهاية القرن الخامس الهجرى وأصبح النصف الآخر مهددا بالزوال ، وشمخ الملك القشتالى <sup>ألفونسو</sup> <sup>الغونزالو</sup> السادس على كل سلوك الطوائف مهددا إياهم بالقضاء عليهم وبدأ يستعد لضربته التالية ضد سرقطة وضد أشبيلية لولا أن قام العلماء بواجبهم ، وتصدوا لعلة الداء الأساسية ، ألا وهى فرقة المسلمين ، وسعوا بالوحدة بين الأمراء حتى جمعوهم فى وحدة على الأمير يوسف من تاشفين - أبر المرابطين فى بلاد المغرب ، ومن ثم تمكن هذا الجمع من تحقيق نصر عظيم على الحضارى فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، وكان لله سبحانه وتعالى ثم لهذه المعركة ونتائجها الفضل فى إمداد عمر الإسلام والمسلمين على أرض الأندلس أربعة قرون أخرى .

عاشت الأندلس فترة أخرى بين مد وجزر فى ظل المرابطين <sup>والموحدين</sup> . بين فترات وحدة وتربط فيتلون بالعدو الضربات الشديدة . وبين فترات ضعف وتخاذل فيتل بهم العدو نفس الضربات ويقتطع بلادهم الواحدة بعد الأخرى دون كلل أو مصادفة إلى أن كانت الطامة الكبرى حيث لعبت الأهواء بقلوب المسلمين ولم تصف نفوسهم ، وأضمروا الخلاف ، وتناسوا مستقبل دينهم ووطنهم

فتزلت بهم القاصمة في معركة العقاب عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وهي <sup>معركة</sup> وعركة كادت أن تكون بالوجود الإسلامي على أرض الأندلس وترتب عليها تساقط الحواضر الإسلامية الكبرى في أيدي الأعداء فسقطت قرطبة ، العاصمة الأندلسية العظيمة في سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، كما أستولى <sup>السياسي</sup> الصاري على جزر البليار عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م ، كما سقطت بلنسية عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ولم تفلح قصائد ابن الآبار في طلب <sup>البحر</sup> النخيرة لها أو إنقاذها ، وخاصة قصيدته التي مطلعها : أدرك نجيلك خيل الله أندلسا إن الطريق إلى مناجاتها درسا وكان سقوط أشبيلية عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م آخر الضربات القوية التي نزلت بالمسلمين في الأندلس ، ومن ثم أستولى نصارى الشمال على معظم الولايات الإسلامية في الشرق والغرب ، ولم يتبق أمامهم سوى ما تجمع من فتات الأندلس تحت قيادة ابن الأحمر الذي أسس له مملكة في جنوب الأندلس ، عرفت باسم مملكة غرناطة وهي مملكة لم يكن لها أن تستمر قائمة لولا ما قدمته من فروض للطاعة وما تنازلت عنه من أراضي لنصارى في ذلك الوقت ، ويعلن الأستاذ محمد عبد الله عنان - رحمه الله عليه - على تلك الأحداث قائلا : ويعلم

### التالدة

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالية في نحو ثلاثين عاما فقط ( ٦٢٧ - ٦٥٥ هـ ) في وابل مروع من الأحداث <sup>واستحال</sup> والخن ، واستمال الوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الأسبانية إلى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة . (١)

عاشت مملكة غرناطة الصغيرة حوالي قرنين من الزمان في ظل ذلك الجو المتلبد ، وذلك بفضل الله ثم ثلاثة عوامل عى :

أولا : التضامن الداخلي بين سكان المملكة الذين شعروا الآن أن لا مفر لهم ، فالعدو من أمامهم والبحر من خلفهم ومن ثم أثبتوا في مواقف كثيرة بطولتهم ووحدهم وتمكنوا من إنزال الهزيمة بعدوهم في مواطن كثيرة ، وتقدموا في فترات من تاريخهم لاسترداد بعض بلاد المسلمين التي سبق أن ضاعت ، ووصل بهم الأمر أحيانا إلى محاولات استرداد أشبيلية وقرطبة ، وساعدهم على ذلك كثرة المسلمين الذين رحلوا إلى غرناطة من باقي بلاد الأندلس المحتلة . (٢)

ثانيا : المساعدات الإسلامية التي أهالت عليهم من إخوانهم المسلمين من دولة بني مرين المغربية ، والتي لم يدخر حكامها جهدا في إنقاذ الأندلس ، حتى حلت بهم هزيمة صعبة فيما <sup>يُعرف</sup> بمعركة طريف عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م ترتب عليها استيلاء النضاري على الجزيرة الخضراء مما هدد بقطع إمدادات بلاد المغرب إلى الأندلس .

ثالثا : ما كان يصيب مملكة قشتالة من تفكك وانقسام نتيجة للصراع بين الأمراء أو ما كان يحدث بينها من خلاف مع الممالك الأخرى على أرض الجزيرة ، وكان ذلك فرصة لعقد المعاهدات مع مملكة غرناطة ، وإعطائها الفرصة لالتقاط الأنفاس سنوات طوال .

بفضل هذه العوامل الثلاثة نعمت غرناطة بفترات طويلة من الهدوء والاستقرار ، تفرغ أهلها خلالها للبناء والتعمير ، فشيدت القصور والمساجد وأقيمت الجسور والمباني ، ارتفعت المدينة رقيًا عظيمًا ساعد عليه كثرة عدد سكانها ووفرة القادمين إليها من أهل المدن الأخرى ، حتى أنها في نظر كثير من المؤرخين الأسبان قد <sup>شُ</sup>عدت صورة أخرى من قرطبة على عصر الخلافة ، ويطلقون عليها أسم الأندلس الصغرى .

وإذا كان دوام الحال من المحال ، فإن غرناطة ، مع بدايات النصف الثاني من القرن التاسع الهجري قد سقطت فريسة للصراعات الداخلية والحروب الأهلية ، والتنافس بين حكامها في الوقت الذي توحدت فيه ممالك النضاري في الأندلس ، وذلك بزواج الملكة إيزابيل المعروف بالكاثوليكية ، ولية عهد قشتالة بالأمير فرناندو ولي عهد <sup>أراغون</sup> أرغوان ، وكان القضاء على مملكة غرناطة ، ودولة المسلمين في الأندلس شرطا أساسيا من شروط هذا الزواج المسيحي وهدفا من أهدافه .

من هنا بدأت الأيام الأخيرة لغرناطة .